﴿ اللغة العربية في مصر ﴾

كثرت العناية واشتد الاقبال على اللغة العربية في هـذه البلاد الى حد يسر من جهة الشيوع والانتشار فقط لا من جهة تهذيب اللغة وترقيتها فان هذا صائر الى العكس كما يظهر وكما هو حد الشيء الذي يكثر فيصبح مبتذلاً قليلا احترامه ورعايته . وان شئت فقل ان هذه اللغة لم تزد شيئاً في الحقيقة وانما هي كانت كالشيء المرن اذا ضغطه تبسط وازداد بما يكون قد قل من ثخانته اي ان مقدارها او قدرها لم يزيدا شيئاً كانه قد قضي عليها ان يكون ربحها مقابلا بخسارة

اما اعظم مسبب لافساد هذه اللغة واكبر متهم بابتذالها وانتهاك حرمتها فهو من كان اعظم مرجو لصيانتها والذود عنها ومانعني به الا الحكومة المصرية نفسها فانها لا تزال حتى الساعة على عهدها الاول من حيث لغة دواوينها وكل كلام رسمي يصدر عنها ولذلك لا يؤمل لهـذه اللغة حياة طيبة او بقاء طويل ما دام رأسها مشيراً الى هذا الحد . بل ربما يكون المشاهد من نموها الحاضر مصدقاً لما قاله عنها المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي من ان صحوتها هذه هي صحوة الموت وتألق المصباح قبل الانطفاء . بل انه اذا لم يكن ما توقعه ذاك الاستاذ فلا تكون تلك الكثرة الا كثرة قلة لان المقصود من الشيء اتقانه لا مقداره . وهذه مدينتنا الاسكندرية مثلا فانها مدينة كبيرة متباعدة الاطراف ولكنه لا يحسب منها مدينة حقيقية الا خمسها او سدسها فقط وما بقي فهو كحال ادنى القرى رتبة بل

هو مشوّه لسائر محاسن البلدة بحيث انه لو لم يكن اصلاً وكانت الاسكندرية على سدسها الان لكانت مدينة لا يقل جمالها عن جمال مدن اوربا العظمى ومن هنا يعلم ان الشيء بجوهره لا بمقداره وحجمه

ولقد يقال ان لغة الدواوين لا تهم مهما فسدت لان كتاتيب البلاد لا تتبعها ومدارسها لا تجري على طريقتها ولكن هذا ليس بصحيح لدى الحقيقة لان الحكومة تعتبر دائما قدوة للرعية وهي السواد الاعظم وعليها المعوّل فاذا فسد المقتدى به فسد المقتدي دون شك وصار يتعذر اصلاح فساده لتطاول العهد عليه

ثم ان فساد هذه القدوة لا يتناول من يباشرون امور الحكومة بذواتهم بل يتناول كل من يقرأ كلامها وهم الرعية كلها لان ما يصدر من انشاء الشرطة والمحاكم ودور المكوس والصحة والسكك الحديدية وسائر ما للحكومة من اعمال لا تعد انما هو مما يقرأه كل انسان منا فتكون الحكومة كأنها تستدرجنا الى الخطأ استدراجاً حتى العالم منا بخطاها فانه لا يلبث على التوالي ان يقلدها ويأنس بخطاها كما نأنس بشتى العيوب التي تحيط بنا لاننا صرنا لا ندري انها عيوب لكثرة ما نباشرها ونراها

ولقد يقال ان تفشي الخطأ اللغوي في البلاد لا يعد من الامور الجدية ولا يفضي الى ضرر مادي اذ هو ادبي وكمالي ولكن الحقيقة ان الخطأ في الانشاء هو كالخطأ في الانسان نفسه فان ملابسه مثلا لا يعتد بها لانها بمعزل عن تجارته وامور معاشه ولكنه لو اهمل شعب برمته ترتيب ملابسه ومساكنه ولم يرع للجمال حرمة ولا للحسن كرامة ادّى ذلك الى ابتذاله

ففسدت عليه تجارته وقلت موارد رزقه لان الاهمال يعدي فيتناول غير الملابس والمساكن

وعدا هذا فان عدم اهتمام الانسان بضبط منطقه واحكام لسانه انما يفضي بالتدريج الى ضعف عقله لان تعمد الضبط والعناية انما هو بمثابة ارهاف للذهن وصقل للقريحة وهو ما يعد واجباً كل الوجوب ومتعلقاً علاقة كبرى بالامور المعاشية التي ليس لها من نقطة ارتكاز الا العقل فكلما كانت تلك النقطة قوية زاد احتمالها . وانت ترى انك لو جئت برجلين لتعلمهما علم الهيئة وكان احدهما يعرف النحو مثلا والاخر لا يعرفه او لا يعرف شيئاً بمنزلته فان عالم النحو يكون اسبق الى فهم علم الهيئة من رفيقه مع ان البعد ما بين النحو والفلك هو بعد الفلك نفسه عن مدرسة النحو وليس ذلك الا لان عقل النحوي مصقول مهذب وقد اكسبته الرياضة قوة فصار اكثر احتمالا واشد ادراكاً . وان ما صح بهذا النحوي يصح بكاتب الديوان فان انشاءه حين يكون ضيق الدائرة وتكون تلك الدائرة فاسدة فوق ضيقها وغير تامة الاستدارة فان قوة استنتاجه في شتى الامور تكون ضعيفة ويكون عمله الاداري مشوشاً مضطرباً لانه قد سلط عليه عقل غير مرهف ولا مثقف

وعدا هذا فان حرمة اللغة العربية وهي لغة القرآن الكريم الذي يتبعه احد عشر مليوناً من سكان القطر يجب ان تكون مرعية كل الرعاية بشفاعة ذلك الكتاب على الاقل وان كان مقامه يقتضي الاكثر لا ان تكون مبتذلة مهانة الى هذا الحد فانك ترى ان اكثر ما يصدر للحكومة من انشاء اما ان يكون عربياً محضاً (من حيث الصورة والرسم فقط) او عربيا وافرنجياً

معاً او افرنجياً فقط فاذا كان عربياً على الصورة الاولى انقبضت لقراءته واسفت وان رأيته عربياً وافرنجياً اسفت اسفاً آخر لكون التداخل الاجنبي لا يزال شديداً في البلاد ولا نزال مضطرين لمراعاته وافهامه مقصودنا بلغته دون ان يضطر لفهمه بلغتنا كما يعاملنا بلغته في بلاده ويلزمنا الزاماً بان نفهمها . واذا كانت افرنجية محضة وهو ما يصدر غالباً من الدواوين المشتركة بها المصالح العربية والافرنجية معاً كان اسفك اقل لانك لا ترى نفسك مهاناً برؤية لغة بلادك سقيمة معتلة موجبة للهزء والسخرية . وانه مما يذكر في هذا الشأن ان احد الادباء كان يتحدث مرة بهذا الشأن مع الشيخ امين الحداد احد شعراء هذه المجلة عن كتابة اكثر المعلومات في الاسكندرية باللغات الاجنبية فاجابه الشيخ امين ان كتابتها كذلك افضل بكثير من كتابتها بالعربية ايضاً لانه لا يكون من العربية الا صورتها فقط . ثم قال له انظر الى هذا الموقف المخصص للمركبات فانه مكتوب عليه موقف معد الى خمسة عشر عربيات اي معد لخمس عشرة عربة وهو تركيب افرنجي محض فلو كتب بالافرنجية وحدها لكان افضل واجمل ولكان في ذلك بعض التوفير المالي للمجلس البلدي . ثم قال له اذهب الى الحديقة التي نصب فيها تمثال لنوبار باشا تجد هناك عموداً من ايام البطالسة وقد كتب عليه بدل عمود (عامود) فانك تود لو لم يكن عليه اثر عربي قط . وقس على ذلك ما شئت تجد ان ابتذال اللغة العربية من جهة اغفالها قد يعد تشريفاً لها لان عدم الشيء اصلاً خير من وجوده ناقصاً نقصاً عائباً

ولقد قلنا ان الحكومة تستدرج الناس الى الخطا وهذا صحيح بدليل ما يشاهد من جري الاجانب على خطتها حين يكتبون عنوانات محلاتهم باللغة

العربية فانهم كما يقلدون الخط الجميل الذي يجدونه في منشوراتها تراهم يقلدونها في الخطا ايضاً فانه قد شوهد مكتوباً على محل عظيم ببيع المصوغات (محل معد لمبيع المصاغات وترسل جميع الطلابات الخ) وشوهد على محل آخر يبيع القرميد (محل معد لعمل القرموط) والقرموط هذا سمك مشهور في هذه البلاد وانظر كم يكون انذهال العامي حين يقرأ ان القرموط صار يصنع صنعاً وماذا يقول عن الاجانب وشدة حذقهم حين يتيقن انهم صاروا يخلقون الاسماك والعياذ بالله . ومما شوهد مكتوباً على محل آخر قد اقفله اصحابه لاصلاحه (اقفل هذا المحل وقتين) اي وقتياً . او كما ينشر الاعلان عن مدارس برليتز فانه يرد فيه (تعلم اللغات الحية تكلماً وكتابتاً) وكما كتب في احدى الصيدليات الشهيرة اعلاناً عن زيت سمك انه (بصيط) اي بسيط فكأن الكاتب جارى حكاية الصوت ولعله اقل الجميع عذراً . وقد بقي في هذه البلدة وفي كل البلاد اعلانات وعنوانات كلها على هذا النسق من الغرابة كما انك لو بحثت عن السبب الذي دعا الى ما فيها من عائب الخطا لما وجدته الا الحكومة نفسها لانها هي التي دست هذا العيب دساً في نفوس اكثر اهلها فصار الاجانب يقلدونهم مع انهم في لغاتهم لا يرتضون باقل خطا ولعلهم لو نبهوا الى ان ما نقشوه باللغة العربية كان خطأ لمحوه في الحال لانهم يغارون على الصواب ولا يرتضون الا بالحقيقة

هذا نموذج مضحك من تقليد الاجانب لخطا الحكومة واما النموذج الاخر من تقليد الاهالي غير الموظفين للحكومة فاعظم واغرب ولكن لما كانت تلك المضحكات مما تستغرق المجلدات بالتأكيد فنحن نكتفي منها

لاضحاك القارئات والقراء بخبر واحد ارسل من احدى قرى الريف الى احدى صحفنا فقد جاء فيه ما يأتي بالحرف

« قدمنا مجلس فرذ القرعة القائم باعمال رقيس القرعة الذي حالوه على المعاش وقايم باعماله بغاية الظبط فنثني عليه سناناً جميلاً » ولعل هذا من اغرب ما شوهد في الانشاء وتصوير الكلمات والاغرب منه انه ذكر نثني بالثاء ثم نسي صوابها بعد كلمة واحدة فرسمها بالسين واما وضعه القاف مكان الهمزة فيظهر انها خطته التي لا ينساها لانه ذكر الرئيس قبلا بالقاف الا ان هذه الطريقة شائعة بعض الشيوع اذ يكتبون الماء الماق وازف الوقت زف الوأت . ومثل هذا شيء كثير يقضي بالاسف والضحك معاً ولكن كله كما قلنا من صنع الحكومة والذنب فيه ذنبها

اما جرائدنا التي يرجى منها كل الخير لهذه اللغة والتي قلنا مرة انها هي التي تستدرك الان ما فرط من الحكومة وانها هي التي تنقل اللغة العامية بالتدريج الى اللغة الفصحى على قدر الامكان — لا تزال على حالها الاولى قريباً من ارتكاب الغلطات التي كان نبهها اليها الطيب الآثار المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي فهي لا تزال تقول يمكن لي ويمكن للحكومة مكان يمكني ويمكن الحكومة ولا تزال تقول العلماء الفطاحل تريد الراسخين في العلم او اكابره والفطحل لم يرد له اشارة الى هذا المقصود في كتاب وانما هي كلمة كثر تكرارها حين كانت المناقشة بين المرحومين الشيخ ابرهيم اليازجي واحمد فارس الشدياق اذ وردت في مقامات مجمع البحرين على غير صورتها الحقيقية فاخذت العامة تتحدث بها لقلة المواضيع في ذاك العهد حتى توهم اصحاب جرائدنا (الفطاحل) انها تدل على العالم الكبير . ولكننا لا ندري ما

الداعي الى اهمال صحائفنا ذاك الكتاب الذي نشر عن اغلاط الجرائد فانه موجود لدى كل واحدة منها كما ان نيله ميسور فاذا كان ذلك ترفعاً عن قبول العلم كان من اكبر المعائب لان العلم فوق كل رفيع والحقيقة مشتقة من الحق سبحانه وتعالى . واذا كان عن كسل وقلة عناية فليس هذا شأن الذي يهتم بترقية اللغة العربية وينشر عنها الفصول الطوال ويعقد لها المؤتمرات لتبديل اسماء المسميات . لذلك نرجو جميع صحائفنا ان تنظر الى عيوب نفسها قبل كل شيء لانها صارت تستدرج الناس الى الخطأ اكثر من الحكومة بسبب كثرة انتشارها ووقوع كلامها على الاسماع والانظار بلا انقطاع . كما ان المأمول من تلك المؤتمرات التي تحاول الاهتمام باللغة العربية ان تطلب من الحكومة اصلاح لغتها بصورة رسمية وان تجعل اللغة العربية محترمة في جميع البلاد فتكون العنوانات الرسمية وغيرها مضبوطة على كل محطة وموقف ودكان ومصرف حتى يتعود الناس هذا الضبط بالتدريج وليعلموا ان اللغة العربية هي اساس الوطنية وحجر زاويتها فيجب ان يكون بنيانهم على اساس متين والا تصوبوا متدهدهين